أريتريا

مشاهدات وآمال

٢ [1]

الثقافة : يبهر المتنقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من أعمال إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمة أوربية قد استعمرت بلاداً طيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها فى الشعب ، أو ترفع إدارتها مستوى المعيشة إلى الدرجة التى تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثار ضحكك وإعجابك عند ما تسمع هؤلاء الناس وقد بسّطوا اللغة تبسيطاً مخلاً ؛ فهم يعبرون مثلا ، فى تصريفهم الأفعال ، بضمائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « أنا ذهاب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب الذى من أجله لا يعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا فى تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى أتيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذى يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على أتيوبيا . وكذلك لاحظ الطليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحيي فيهم النزعة القومية ، ويثير فيهم حب الاستقلال والرغبة فى التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على التعليم الذى يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا فحسب ، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة الملموسة . فكأن

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦)

هؤلاء الطليان فى مأدبة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية فى قصر فخم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسى عن السبب الحقيقى فى تلك الظاهرة الغريبة ، فعللت ذلك بأن الإيطالى المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريترى ولم يقدّر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته ممتهناً عقلية الشعب الأريترى ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحث على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير فى الكنيسة عليه المسيح مصلوباً فى صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك . وأما الناحية الاجتماعية فقد نزل الايطالى إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريترى ينظر إلى الأوربى بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربى يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الايطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالى فعمدت فى سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأتيوبيا من يد الطليان ، فكنت ترى الأتيوبى أو الأريترى يستخدم الايطالى . وقد انقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون بهذا قانعون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أتيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذى يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن . وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يماثلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً فى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالى شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أى اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلا عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر فى أخلاق هذا الشعب لمستعمر جعلته يخفق فى حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

الأريترى الذى يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التى جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التى ركزها الطليان فى الدعاية لحب إيطاليا أو التى ركزوها فى الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتى كان مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكى . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنية التى تراها فى أريتريا فهى لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

الدين : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومنتيوس فى القرن الرابع الميلادى حين رست به السفينة فى ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية فى المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطى مطراناً على تلك الجهات (أى الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجرى تقريباً . ويقيم المسيحيون فى أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ فى القداس استعمال السيسترم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية فى أريتريا ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية فى ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركا حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الدينى لأريتريا المطران القبطى الموجود فى أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأتيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس فى مصر على أن يُرسم على أتيوبيا مطران أتيوبى ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التى بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحرية بها . ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده فى تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الايطالى لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافى . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة فى أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسى من جهة والتأثير

فى الناس بالمظهر الخارجى للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا فى ذلك . ويبدو لى أنه قد حان الوقت الذى يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفا مصريًا يكون تابعاً للبطريرك القبطى مباشرة أو للمطران الأثيوبى ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة فى نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الايطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الاسلامى منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين وفى معظم البجه وكذلك فى كل القبائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتى الدناكل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنيين ، وهم على المذهب المالكى أو الشافعى . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهى منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية فى جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحدادية والتيجانية . وقد حمل المسلمون فى أريتريا ثقافة مصرية أتتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون فى رواق الجبرتى فى الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولكن جهود مصر فى تنظيم هذه الثقافة التى استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتى مثلا فى حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم فى هذا لمساً يدعو إلى الاطمئنان .

العادات . يسترعى نظر المصرى فى تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثانى — حج أول — حج ثانى — شفر — ربيع أول — ربيع ثانى — جماد أول — جماد ثانى . وهم لا يتزوجون فى رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة فى هذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزواج إلا فى الأشهر الزوجية وهى الأفاطر والحاجاج والاربعات والأجدات ، كما يسمونها .

والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والاناث عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يحلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما فى وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أى من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها اسم فى لغتهم ، وهذا يماثل ما نسميه فى مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويحلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أوعلى السوالف أوحول الرأس أوفى مقدم الرأس وفى آخره معاً ، وتعرف الأبكار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريتريين معتقدات فى قوة الشعر السحرية ، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو فى مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله «ينشعر» أو تتشتت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتى من الشعر فيقولون فى تعبيرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سنه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورماها مع سنه وهو يقول : أيها الضبع خذى سنى الجميلة وأعطنى سنك القبيحة . وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال فى مصر: «ياشمس ياشموسه ، خذى سنة العروسه ، وهات سنة الجموسة » . ولهم فى مأكلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رئته أو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون فى ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون فى صلاتهم ، ولا يأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد .

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقى أى جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير . وقد قلت لأحد فقهائهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامى ، وإن الآية صريحة فى سورة المائدة

«أليوم أحِلَّ لكمُ الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكمْ وطعامُكم حِلٌّ لهم » فقال إننا نعتبر المسيحيينْ هنا مسلمين قد ارتدوا ؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم .

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خميرة على الطريقة المعروفة عند البدو فى مصر ، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب . وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير .

ولهم تقاليد معقدة فى حالات الموت : فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت ، ويختلف المأتم باختلاف مركز الميت وسنه . وقد ذكر لى بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات ، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحلبون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن . وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراحلين ثم يذكرون فى كل مرة اسم الراحل . ولست فى حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين فى الأحجبة والسحر والسحرة .

ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى ، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكرة : « حوار شيك » أى حمار الشيخ ، و « اتجاوها » أى أتى فى الفجر ، و « هامرا باى » أى أضعف الأعداء ، و « هارابا » أى أطعم الغريب ، و « جبب » أى غطاء (الأم) و « هاداما » أى هرّب (الأعداء) و « بديهو » أى لقيا . ومن بين الأعلام المؤنثة « أرهبت » أى أراحت « وقبربا » أى سعيدة . وقد ذكروا لى أن الأم تطلق عادة على كل من أولادها إسماً ثانياً يكون صفة .

والشعب الأريترى على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة ، وتقوى فى العبادة ، وهدوء فى الطبع ، وصدق فى المعاملة ، وإخلاص فى العمل . وأشكالهم فى جملتها لطيفة : وجوههم سمحة ، ولون بشرتهم أسمر مشرب بحمرة ، وأجسامهم مستوية . وقد اشتهرت نساء قبيلة بلين بجمالهن ، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن . وتسير المرأة من نساء البلين بخطوات هادئة رزينة متناسقة ، وهى تخور بجسمها النحيل السمهرى المستقيم كالتمثال المنحوت ، وذراعاها سبطتان ، وخصرها لا يتحرك فى سيرها ولكنه بعيد عن الجمود . وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكلفة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن ممثلات السينما فى هوليود يمكنهن أن يتعلمن من نساء البلين الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأدب الشعبى : يغرم أهل أريتريا بالأحاجى «والفوازير» . وهذا يندر فى لغات أتيوبيا ، ولكننا نعهد مثله فى مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو بشرح الأمثال على ما هو معروف فى الأدب العربى . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطىء اسمه جادام . ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن تعقد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطىء ، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام ، فوصل بمقدمه إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً فى الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم فى مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجد جبل جادام يسبق الجبال الى الشاطىء. يقولون فى الأمثال : « لا ترتكب خطأ فإنه يجب أن يقف كل فى مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى . وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فمه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قوياً إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير الانسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية » . وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم فى المصريين .

فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس ألولا وقد قبض عليه الرأس ووضعه فى الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين ، فقال يناجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصفد فى الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأمجاد . »

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجرى موزعة بين الأحباش والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل فى حصن كيرين ، وكان له صديق انضم إلى الرأس ألولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه ، وهو يمتدح المصريين ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثأر من أهله ويناقض شاتمه ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فحدأة على الشجرة
إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجا
وكل من تركهم « ألولا » خلفه نحكمه نحن
ما ذا يعطيكم لتا كلوا سوى الخبز وحده !
يقوم بيني وبينكم بحر واسع
فسيدى يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم
ويجزل العطاء فيملأ يدى بالنقود
متى قلت إنى عريان أو إن لباسى ممزق .
هل آخذ ثأرى منكم أو أتركه ؟
تعالَ إلينا فنحن أثرياء
فحاية سيدى لا تقدر فضلا عن سخائه
إن ثأرى جائع لكنه لا يرغب فى الطعام
إن ثأرى ظمآن لكنه يأبى الارتواء
لا يخرج ثأرى إلى أبعد من الكلام إلى الناس
ثأرى ضعيف لا تقوم له قائمة
فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس ألولا) إنى سكران كانى ثمل من الخمر
يقولون إنى مجنون كأنى اقتحمت منازلهم
ولـكنهم خاطئون فلم أشرب الخمر ولا طرقت منازلهم .
بلغ سلامى يا صديقى إلى الحبيبة إذا مررت بها
ليس جمالها الذى أعلـنى وأسقمنى
بل كما لها فى قولها وتمامها فى فعلها
ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الـكذب
ليست بغيًّا تجلس أمام كل بيت
إذا أحبت رجلا أنفت مطاردته
وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله
هم يقولون إنها بغى كذبا وظلماً
إنها قابعة فى دارها فى عيش رغد
أنا مطمئن اليها واثق بها
لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملى فى الحصن حيث الضباط . »

مراد كامل